غزو واستغزاء آخر

رأيت فيما تقدم أن أول ثقافة قابلت الإسلام واصطدمت به هى الثقافة اليهودية، وقد كان لليهود فى مجتمع المدينة، مكانة علمية وثقافية يمتازون بها عن العرب حولهم، ولذلك كان العرب ينظرون إليهم، على أنهم فى مستوى علمى أعلى وأرقى منهم.

وقد أخرج الإمام أبو داود حديثًا[1] جاء فيه: «كان هذا الحى من الأنصار - وهم أهل وثن مع هذا الحى من اليهود، وهم أهل كتاب، فكانوا يرون لهم فضلًا عليهم فى العلم وكان يقتدون بكثير من فعلهم قبل الإسلام».

ومع أن الإسلام ارتفع بمستوى العرب الذين دخلوا الإسلام، وبعث فيهم روح الاعتزاز بدينهم، إلا أن هذا الاتجاه من العرب قبل الإسلام تجاه اليهود، لم ينقطع تمامًا بدخولهم الإسلام، بل ظل الأثر النفسى مترسبًا فيهم.. ولذلك رأينا عمر بن الخطاب مع جلالة قدره، ورسوخ قدمه، يحمل ورقات عن اليهود يذهب بها للرسول، فينهره، ورأينا المسلمين يتجمعون حول اليهود يسمعون منهم تفسير التوراة بالعربية، فينهاهم الرسول، ورأيناهم يسألون اليهود عن أشياء فيقول الرسول: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء»..

ورأينا ما نقلته لنا كتب الأحاديث الصحيحة غير هذا من أحاديث أخرى، ذكرناها ووقفنا عندها نحللها، ورأينا اختلاف الصحابة أنفسهم، تجاهها، مما ذكرناه عن عبدالله بن عمرو ومن كان معه فى اتجاهه، وعن عمر رضى الله عنهم جميعًا. ولكل وجهة..

وكانت النتيجة هذا الغزو الإسرائيلى الثقافى الذى حشده فى كتبنا أكابر

---

(١) ضحى الإسلام جـ ١ ص ٣٣١ الطبعة الثانية وقد ذكر ابن خلدون ذلك أيضًا مع تحليله فى مقدمته.

طيبون فضلاء منا، مما لا يزال ماثلاً فيما بين أيدينا من كتب التفسير وغيرها، يلوث ثقافتنا الأصلية..

وكان هذا من أخطر ما أصيبت به ثقافتنا منذ عهد طفولتها، وإن كان هذا كله لم يمس المبادئ والتعاليم، ولكنه جاء على الهامش، فيما يتصل بالتاريخ، أو ببعض الظواهر الكونية مما سبق ذكره..

وصار نهر ثقافتنا الواسع الهادر، يحمل الماء العذب الفرات، ويحمل معه كذلك عكارات ونفايات..

وتسير الأيام والسنون، ويخرج المسلمون من جزيرتهم حاملين الهدى والرشاد لمن حولهم شرقًا وغربًا، فى بلاد سادتها حضارات وثقافات عريقة: فارسية وهندية، ورومانية، ويونانية، ووجد المسلمون فيها علمًا ونظمًا وفنونًا وأديانًا.. وجدوا مجتمعات حضارية لم يعهدوها فى حياتهم بجزيرتهم.. وكانت معهم ثقافتهم وشخصيتهم الإسلامية يحرصون عليها وينظرون لكل جديد حولهم من خلالها.. يقيسونه بمقاييسها..

وكانوا هم الأقوياء الفاتحين المعتزين بدينهم وثقافتهم، فظلوا محافظين عليها يقبلون مما وجدوه أمامهم، مالا يتناقض معها، ويستفيدون مما لا ينقضها..

ومرت أيام الخلفاء الراشدين، وجاءت بعدها أيام الدولة الأموية، والشخصية الإسلامية العربية هى الشخصية السائدة.. والمسلمون العرب مشغولون بحروب وثورات داخلية وخارجية، إما لتوطيد حكم الدولة أو لزعزعته، وإما لتوسيع رقعتها، ونشر الإسلام فى بلاد لم يكن قد وصل إليها، حتى وصلت الرقعة الإسلامية إلى الأندلس غربًا، وإلى الهند والبلاد الجنوبية من روسيا الآن شرقًا، والدولة الأموية تؤكد على إبراز شخصيتها وثقافتها الإسلامية العربية، طوال مدة حكمها حتى اتهموها ظلمًا بالتحيز الممقوت للعرب.

وكانت البلاد التى فتحها المسلمون من الشمال الأفريقى والشام، والعراق وأرض فارس، بلادًا تموج فيها الحضارة أو الثقافة اليونانية منذ أيام الإسكندر والرومانية والفارسية، وكانت للثقافة والعلوم اليونانية مراكز إشعاع ومدارس فى

الاسكندرية وحران ونصيبين وانطاكيا والرها، وجنديسابور، حيث تلتقى بالفارسية والهندية، وقد تولت هذه المدارس نقل كثير من كتب اليونان إلى الشرق بلغتهم بواسطة النساطرة واليعاقبة فى الشام، وعلماء مدرسة الاسكندرية وغيرهم.

وبذلك جاء الفتح الإسلامى، ووجد الحضارة والثقافة اليونانية لها أرضها، ولها حماتها كما وجدوا فى فارس الحضارة والثقافة الفارسية، وجارتها الهندية، وفى كل من هذه الثقافات والحضارات أفكار وعلوم نظرية وعملية.. لم يعمل المسلمون على مصادرتها، بل تركوا لها ولرجالها المجال حيث كانت حرية الفكر متوفرة، ولقد كان من الطبيعى أن يحس المسلمون هذه الحضارات والثقافات، وما أتت به تحمله، وأن يبدءوا -لاسيما علماؤهم- بالتعرف عليها وعلى علومها..

فرأينا خالد بن يزيد بن معاوية يبتعد عن مجال الحكم ويتجه للعلم وخاصة الكيمياء، التى تحول المعادن إلى ذهب - كما فهم - ويتصل بمدرسة الإسكندرية لتعلم الكيمياء، فترجمت له بعض الكتب، وكان هذا حادثًا فرديًا.. حتى جاءت الدولة العباسية بعد أن قضت على الدولة الأموية بمساعدة المسلمين الفرس، واستتب لها الحكم سريعًا واستقرت الأمور، وغلب العنصر الفارسى وأثر فى حكمها لا سيما بعد سنين من قيامها.

وبدأ الخلفاء يتطلعون بواسطة من حولهم إلى التعرف على الحضارات والثقافات اليونانية والفارسية والهندية بشكل أوسع.. وكان لابد لهم من ترجمة كتبها بصورة أكثر فاعلية عما كان من قبل، فاتجهوا إلى علماء هذه المدارس، ليقوموا بالترجمة إلى العربية، فنقلوا إليها أهم كتب أرسطو وشروحها، بما فيها المنطق، وأهم كتب أفلاطون، وجالينوس فى الطب، وغير ذلك مما انتجه العقل اليونانى، كما ترجمت كتب فارسية وهندية، كمثل كليلة ودمنة [1]، وغيرها..

---

(١) ترجمها عبد الله بن المقفع من اللغة الفهلوية وقد قتل عام ١٤٢ أو ١٤٥ هـ وكانت منقولة من قبل من الهندية إلى الفهلوية وبواسطة الترجمة من الفارسية تأثر الشعر والأدب وغيرهما. كما أثرت الثقافة الهندية فى التصوف وغيره من الرياضيات والفلك، وكان العرب قد قاموا بترجمة الكتب الهندية بعد أن اتصلوا بالهند، وعن طريق الهنود الذين جاءوا للبلاد العربية فتولى العرب الترجمة من الهندية.

حتى جاء المأمون فنظم أمور الترجمة، وراسل ملوك الروم ليمدوه بما لديهم من تراث ليعمل على ترجمته، فنشطت الترجمة واتسعت، ووجدت هذه المواد المترجمة إقبالاً عليها من المسلمين.. ليزدادوا علمًا، وإحاطة بما لدى غيرهم..

وكان الجانب الذى عنى به المسلمون وحكامهم من هـذا التراث هـو الجانب العقلى والعملى كالمنطق والبحث عن موجد الكون، وتفسير مظاهره، والطب والفلك والرياضيات وما يشبه ذلك..

أما الجانب الأدبى وكل ما يتصل بالعاطفة فلم يعنوا به تمامًا كغيره، لاختلاف المقاييس والمشارب فى هذا النوع من التراث. وإن كنا لا ننفى التأثر بهذا الجانب، أما الناحية الدينية فى هذه الثقافات فقد رفضوها.

وبهذا أصبح لهذه الحضارات والثقافات - ولا سيما اليونانية - سوقها الرائجة لدى المسلمين وفى مقدمتهم حكامهم..

وكان المسلمون وهم أقوياء به حين اتجهوا لهذا، وفى مقدمتهم حكامهم لهم الكلمة فيما يقبل، وما لا يقبل منها، وكانت غايتهم جميعًا الاستفادة مما لدى الغير من علوم نافعة، فالحكمة ضالة المؤمن، والحكام يريدون أن يرقوا بأمتهم..

وبهذا دخلت الفلسفة والعلوم اليونانية سوق العلم الإسلامية، وأقبل العلماء على منطق أرسطو، وعلى مباحث الإلهيات وعلى الطب والفلك مما يتوقعون منه أن يوسع مداركهم ويزيدهم علمًا يخدمون به دينهم أو حياتهم. وإن اختلفت مشاربهم.

وأتيح لأهل المذاهب والآراء المختلفة أن يعرضوا مذاهبهم، ويجادلوا عنها، فى جو من حرية الرأى، عنى الحكام بتوفيره للجميع..

وقد افتتن المسلمون بهذه التيارات الجديدة، وما فيها من علم وأفكار، سواء منها الفارسية ومشجعوها من البرامكة أو غيرهم بعد نكبتهم، أو اليونانية والهندية..

كما افتتنوا بمظاهر الحضارة التى وفدت عليهم كذلك.. وأصبح ذلك كله عندهم

«موضة» يتشحون بها سواء عن اقتناع أو لحب الظهور والتظرف من قبيل: «خالف تعرف» كما يحصل عندنا الآن فيذكر الأغانى «أن محمد بن زياد كان يظهر الزندقة والمجون تظارفًا»، فقال فيه ابن مناذر

يـــابن زيـــاد يـــا أبا جعفر أظهرت دينًا غير ما تخفى
مزندق الظاهر باللفظ فى بـاطن إسـلام فتى عف
لست بـــزنـديق ولكنــما أردت أن توسم بالظرف

وقال غيره:

تـــزنـــدق معلنًـــا لـيقـــول قـــوم إذا ذكـــروه زنـــديـــق ظـــريـــف
فقـــد بقي التـزنـــدق فيـه وســـمًا ومـــاقيـل الـظريف ولا اللطيف[1]

وهذا شبيه بما يحصل عندنا فى هذه الأيام من بعض الناس - ولا سيما الشباب - من الجهر بآراء أو أعمال مخالفة للدين والتقاليد، أو من محاكاة الغربيين ليقال عنهم: إن لهم رأيًا وأنهم متحضرون.. إلخ..

وهذا يدل على مدى تأثر الوسط الإسلامى بالثقافات الوافدة مع نزوع إلى الترف والمجون. على أن أثر هذه التيارات ظهر حقيقة فى الأوساط العلمية بشكل مفيد وكبير غالبًا، يتحدث عنه الأستاذ أحمد أمين فى ضحى الإسلام[2] فيقول:

«كان لهذه الثقافة اليونانية أثر كبير فى المسلمين، ومما زاد من أثرها أن اتصال المسلمين بها صاحب عصر تدوين العلوم العربية، فتسربت الثقافة اليونانية إليها وصبغتها صبغة خاصة، كان لها تأثير فى الشكل وفى الموضوع»..

وتحدث عن الشكل فقال: «إنه يرجع لتأثير المنطق اليونانى الأرسطى على أسلوب المتكلمين والفقهاء والنحويين».

ويحدث عن الموضوع فقال: إنها أثرت تأثيرًا كبيرًا فى تعاليم المتكلمين..

---

(١) ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٤٩ مصدر سبق ذكره.
(٢) ص ٢٧٤.

ولا سيما لدى المعتزلة، وفى التصوف والفلسفة الإسلامية.. كما كان للبلاغة اليونانية أثر فى علم البلاغة العربى..

ثم يعقب على ما بسطه من كلام فى هذه الناحية فيقول[١]: وهذا هو الذى يعنينا:

«ولكن مما لا شك فيه أن العرب أو المسلمين استخدموا ما أخذوا من الثقافة اليونانية استخدامًا صالحًا، وأخذوا منها ما أخذوا ثم بنوا عليه، وزادوا فيه وابتكروا[٢]، ولم يكن موقفهم موقف الناقل فحسب، وكان كثير منهم ينظر بإحدى عينيه إلى الثقافة اليونانية، وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية والثقافة العربية، فيختار من الأولى ما يتفق والثانية، ويؤلف منها مزيجًا لا هو يونانى بحت، ولا هو إسلامى بحت إلخ..».

وهذا يعنى أن المسلمين قد قاموا بعملية تشبه عملية التطعيم للأشجار بما هو نافع للتطعيم، حسب اجتهادهم، ليوجدوا نوعًا يجمع محاسن النوعين، فلم يستعملوا الثقافة اليونانية أو الفارسية للهدم، أو لتغيير المعالم الأصلية فى الثقافة أو الروح العربية الإسلامية، وإنما لخدمتها، ووقف علماؤنا المخلصون سدًّا أمام مثالب التيار الغريب ودعاته، على حين لم يمنعوا ما فيه فائدة منه.

ولا يزال المنطق الأرسطى الذى نقله المسلمون هو المنطق الذى ندرسه الآن، وإن وقف ابن تيميه ومدرسته ضده وجاء «ديكارت» وفرنسيس بيكون» فعابوا هذا المنطق الأرسطى كابن تيمية، ووضعوا «المنطق الجديد» منطق الاستقراء والتجربة، ولا تزال الفلسفة الإسلامية المطعمة بالفلسفة اليونانية أو الهندية والفارسية والتى أنتجها فلاسفتنا الإسلاميون هى التى ندرسها، وهى التى دافع عنها دفاعًا حارًّا علم من أكبر علمائنا السابقين، وهو ابن رشد فى كتابه «تهافت

---

(١) ص ٢٧٨.

(٢) وسبقوا العلم الحديث فى ابتكارهم ولاسيما فى الطب فاهتدوا إلى أن الأوبئة تنشأ عن تعفن، وتنتقل عدواها عن طريق الهواء والمخالطة، وسموا الأمراض المعدية بالسارية وكانوا أول من عرفوا تفتيت الحصاة فى المثانة، واستخدام المخدر فى العمليات، وشكل أظافر المصدورين، والبول السكرى والحصية، واكتشفوا بعض العناصر، كحامض الآزوت والكبريت إلى غير ذلك مما تحدث به الباحثون فى أثر العرب فى نهضة أوربا العلمية، وألفت فيه الكتب...

التهافت»، الذى رد به على كتاب «تهافت الفلاسفة» للإمام الغزالى، حين هاجم الفلسفة وبين زيفها.. وهكذا..

وقد استعمل علماؤنا الأجلاء فى تلك العصور ما استفادوه من علم المنطق وغيره فى الرد المفحم على الذين تهجموا على الإسلام وقضاياه، حيث عاملوهم بنفس سلاحهم الهجومى، وكان لهؤلاء فضل عظيم فى الدفاع عن الإسلام، حين تسلحوا بأسلحة الثقافة الوافدة، وردوا على الذين استعملوها للتهجم على الإسلام وكان من أبرز هؤلاء المعتزلة وإن لم يكونوا وحدهم..

الحياة الاجتماعية:

وبجوار التأثر بالعلوم، كان هناك تأثر آخر عن طريق الحياة الاجتماعية فى الوسط المتأثر بحضارة اليونان والرومان والفرس، وهو مجتمع جديد لم يألفه العرب، قبل أن يخرجوا من الجزيرة. ولا شك أن المعايشة والاختلاط بالغير يؤدى إلى نوع من امتزاج الثقافتين الإسلامية وغيرها فى الحياة الاجتماعية واقتباس مالدى الغير مما يستحسن أو تدعوا الحاجة إليه». وقد رأينا معاوية وهو حاكم فى دمشق يتخذ من الحجاب ومظاهر الحكم، ما لم يتعوده المسلمون، ولما زاره الخليفة عمر، وأبدى ملاحظة عليه من هذه الناحية، إعتذر له معاوية بأنه فى بلاد تعودت ذلك فى حكامها الروم من قبل، وليس له إلا أن يفعل ذلك.. فسكت عمر وتركه وقال: «لا آمرك ولا أنهاك».

فى حين كان يحاسب الولاة فى جزيرة العرب على أقل من هذا..

ولانظن إلا أن مظاهر الحياة الاجتماعية فى هذه البلاد المفتوحة كانت متقدمة عما ألفه العرب فى جزيرتهم، مما جعل الفاتحين يأخذون من هذه المظاهر فى نمط وأسلوب حياتهم ما أعجبهم.

وكان ذلك تطعيمًا لأسلوب الحياة لا يلحق ضررًا بجوهر الثقافة العربية الإسلامية.. وإن ألحق بها أخيرًا مظاهر من الترف، قد يضيق بها الإسلام، مما جعل بعض العلماء والشعراء يركزون على الزهد والدعوة إليه، وعلى التصوف والعزوف عن الحياة كهجوم مضاد.

ولكن بعد هذا كله نقول: إن هذا الغزو الثقافى أو «الاستغزاء» مع ما صاحبه من غناء رفضوه، قد أفاد المسلمين كثيرًا، وإنه هيأهم لكى يأخذوا مكانهم فى صنع حضارة إسلامية، فى شتى نواحى الحياة الفكرية والعملية.. دون التخلى عن ثقافتهم الأصيلة.. ولذلك كانت حضارة لها طابعها الإسلامى وشخصيتها الإسلامية، ولها أثرها العظيم بعد ذلك فى الغرب وتقدمه علميًّا كما نعرف.

ولذلك نمر سريعًا ولا نقف عند هذا «الاستغزاء» الذى كان بصنع المسلمين أنفسهم، ونقلهم له، وخرجوا منه سالمين، لننتقل إلى دور آخر من أدوار الغزو الثقافى والحقيقى، الذى دبر له أعداء غزاة، وخططوا له، وساعدهم على السير فى تنفيذ مخططاتهم ما أصاب المسلمين عامة من ضعف فى الحكم، وما منيت به ثقافتهم تبعًا لذلك من ضعف المناعة بسبب حكامهم غير العرب، وقد سهل هذا لأعداء الإسلام والمسلمين أن ينفذوا إلى نفوس المسلمين وإلى ثقافتهم الأصيلة.. ويسلطوا عليها معاولهم على أمل أن تلفظ أنفاسها بعد أن أخفقوا فى بقاء السيطرة على البلاد الإسلامية فى الشام، وعادوا مقهورين إلى أوربا بعد قرنين من الزمان استولوا فيهما على بلاد الشام..